التلحين الليتورجي

للأب نيكيتا أسقف رمسيانا

مقدِّمة:

الأب نيكيتا هو من آباء القرن الرابع (٣٣٥-٤١٤)، وقد عاصر جهاد الكنيسة ضد الأريوسية، ودافع عن إيمان مجمع نيقية ولاهوت الروح القدس. وقد استقينا معلوماتنا عن حياته ونشاطه الرعوي وما كتبه عن التلحين الليتورجي من صديقه المعاصر له: بولينوس أسقف نولا الذي سماه "الأب القديس". وكان نيكيتا أسقفًا لرمسيانا التي تقع جنوب شرق صربيا حاليًا. وكان قد كرز باسم المسيح بين قبائل إقليم "داكيا" (بلغاريا ورومانيا حاليًا) لعدة سنوات وأدَّت كرازته إلى ثمار مفرحة. كما كان مؤلِّفًا للألحان الليتورجية باللغة اللاتينية. وعظته هذه عن "التلحين الليتورجي" تسلطِّ الضوء على التسبيح في الكنيسة الأولى.

لقد وُجِدَت الألحان في العبادة منذ بداية المسيحية. فالرب يسوع سبَّح بالمزامير (مر ١٤: ٢٦)، كما نصح بولس الرسول بالترتيل في العبادة (١كو ١٤: ١٥؛ كو ٣: ١٦). ولكن يبدو أن آباء القرن الرابع رفضوا الآلات الموسيقية في العبادة، ولكن نيكيتا ذكر في عظته التالية استعمال الدفّ فقط. فالمسيحيون يرتِّلون في حضرة الله وليس من أجل متعة بشرية! ويخبرنا ق. أغسطينوس كيف أنه تأثر بعمق لدى سماعه الألحان الكنسية فيقول: [ما أشد تأثيرها عليَّ! إنها تجري إلى أذني وتوصل الحقيقة لقلبي، فتتدفق مشاعر التقوى وتتساقط الدموع بغزارة، وهذا إنما هو خيرٌ لي ونعمة][1]. وهو يرفض وضع جمال الصوت في مرتبة أعلى من الكلام المرتَّل، فيقول: [إنني أتأرجح بين خطر المتعة الحسِّية بالألحان واختبار تأثيرها النافع، لكن أتجه أكثر إلى استحسان عادة الترنيم في الكنيسة حتى يمكن للنفس الضعيفة أن تصعد بواسطة مسرَّات الأذن نحو الخشوع والتقوى في العبادة][2].

---

(1) *Confessions*, 9:6.
(2) Ibid., 10: 33.

فلنستمتع جميعًا بحلاوة الألحان والتسبيح كذبيحة حب تفرِّح قلب الله بفهمٍ وتقوى، في انسجام واتفاق دون مباهاة أو تظاهر في الحضرة الإلهية وشركة الملائكة والقديسين كما اختبر وعاش آباء الكنيسة الأولى.

***

نـص العظـة[٣]

***

لقد وعدتُ سابقًا أن أتكلم عن الخدمة بالتسبيح والمزامير، فسأوفي بوعدي في هذه العظة. إنني لا أرى أن هناك وقتًا أفضل من هذا الذي فيه يَعتبر أبناء النورِ الليلَ مثل النهار والذي يمنحنا فيه الليلُ السكونَ والهدوء، والذي فيه نُمارس هذه الخدمة. فهذا هو وقت الحديث عن التلحين الليتورجي حيث اجتمعنا معًا لهذا الغرض.

إنني أدرك أن البعض منَّا يعتبرون أن تلحين المزامير والتسابيح أمرًا غير ضروري. فهم يرون أن ما نُرتِّله باللسان يكفي أن نقوله بالقلب. وهم يبنون رأيهم على الآية: «امْتَلِئُوا بِالرُّوحِ، مُكَلِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِمَزَامِيرَ وَتَسَابِيحَ وَأَغَانِيَّ رُوحِيَّةٍ، مَتَرَنِّمِينَ وَمُرَتِّلِينَ فِي قُلُوبِكُمْ لِلرَّبِّ» (أف ٥: ١٨و١٩). وهذا يعني أن نرتل في قلوبنا ولا نُحدِث ضجيجًا بالنغمات الموسيقية مثل الممثِّلين على المسرح. لأن الله، الذي يفحص القلوب، يكفيه أن يكون ترتيلنا صامتًا وفي القلب. أمَّا أنا فلي وجهة نظر مختلفة. فبالطبع لا يوجد خطأ في الترتيل بالقلب. ففي الحقيقة إن التأمل بالقلب في أمور الله إنما هو أمر صالح على الدوام. ولكنني أعتقد أيضًا أنه أمرٌ جديرٌ بالثناء أن يمجِّد الناس الله بأصواتهم.

إثبات أهمية التلحين من الكتاب المقدَّس:

وسوف أُثبت ذلك بتقديم عدة نصوص من الكتاب المقدَّس. ولكن يجب عليَّ أولًا أن ألجأ إلى نص الرسول ذاته لكي أفنِّد به حماقة الذين يدينون التلحين الصوتي. حقًّا، بالطبع، إنَّ الرسول قال: «امْتَلِئُوا بِالرُّوحِ، مُكَلِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِمَزَامِيرَ». لكنه أيضًا قصد، ليس بدرجة أقل، أن نفتح أفواهنا ونحرِّك ألسنتنا ونطلق شفاهنا لسبب بسيط هو

(3) *The Fathers of the Church*, Vol. 7, p. 65.

أنه لا يستطيع أحد أن يتكلَّم بدون تلك الأعضاء. فالتكلُّم والصمت يختلفان كاختلاف السخونة والبرودة. لاحظوا أن الرسول يقول: «مُكَلِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِمَزَامِيرَ وَتَسَابِيحَ وَأَغَانِيَّ رُوحِيَّةٍ»، فهو بالتأكيد ما كان يذكر الأغاني الروحية لو كان يريد أن يكون المُرتِّل صامتًا تمامًا. فالحقيقة البسيطة هي أنه لا يستطيع أحد أن يُرتِّل ويظل صامتًا في نفس الوقت. وعندما يقول الرسول: «في قلوبكم»، فهو يريد أن يحذِّرنا ألَّا نُرتِّل بأصواتنا وحدها بدون أي شعور في قلوبنا. وهكذا أيضًا، فإنه في نصٍّ آخر يقول: «أُرَتِّلُ بِالرُّوحِ، وَأُرَتِّلُ بِالذِّهْنِ أَيْضًا» (١كو ١٤: ١٥)، فهو يقصد الترتيل بالصوت والذهن كلاهما معًا.

أما الاعتراض على التلحين فهو من اختراع الهراطقة[٤]. فعندما يبرد إيمانهم يخترعون الأسباب لرفض التلحين. فهم، بذلك، يُخفون كراهيتهم للأنبياء، ولا سيما النبوات الخاصة بالخالق. إنهم، تحت مظهر التقوى، يحاولون إسكات كلام الأنبياء، وفوق كل شيء أناشيد داود السماوية.

أيها الأحباء، لقد تربينا على كل تعاليم الأنبياء والأناجيل والكتابات الرسولية. فلنضع أمام عيوننا كل ما قاله وعمله أولئك الذين ندين لهم بكل ما نحن عليه. دعونا نحتكم لسلطان الذين تكلموا من البداية لكي نثبت كيف أن الأناشيد الروحية مرضيةٌ عند الله. وإذا تساءلنا عمن هو أول من أدخل هذا النوع من الترتيل لعلمنا أنه موسى النبي. فقد رتَّل لله لحنًا رائعًا بعد أن أُصيبت مصر بالضربات العشر وغرق فرعون وتحرَّك شعب إسرائيل نحو البرية وهم ممتلئون بالفرح بالعبور المعجزي للبحر الأحمر. فقد سبَّح الرب قائلًا: «فلنسبح الرب لأنه بالمجد تمجد» (خر ١٥: ١)[٥]. إذن، فأول مَنْ أسَّس خوارس مرتلين هو موسى النبي قائد قبائل إسرائيل. وقد جعل من الرجال والنساء جوقتين، حيث جعل من نفسه ومريم أخته قائدَين للرجال والنساء، فعلَّمهم أن يرتلوا لله لحن النصرة. ثم رأينا دبورة – السيدة المتميزة المذكورة في سفر القضاة – تؤدِّي نفس الخدمة (نشيد دبورة وباراق بعد انتصار شعب الله – انظر: قض: ٥). كما أن موسى أيضًا، عندما كان على وشك مفارقة هذه الحياة، رتل نشيدًا مُلهَمًا ومهوبًا (تث ٣٢). وقد ترك هذا النشيد نوعًا

(٤) لعله يقصد الهراطقة الذين رفضوا العهد القديم مثل ماركيون وماني.

(٥) وهو الهوس الأول في تسبحتنا اليومية، ويبدأ لحن "آسومين تو كيريو" في عيد العنصرة وصوم الرسل بهذه الكلمات.

من العهد لشعب إسرائيل لكي يتعلَّموا نوع المناحة التي يجب أن يتوقعوها إذا تخلُّوا عن الله. والويل للذين رفضوا التخلِّي عن الخرافات المحرَّمة بعد سماعهم مثل هذا الإنذار الواضح.

داود النبي هو أمير المرتلين:

بعد ذلك ستجدون الكثير من الرجال والنساء الذين رتَّلوا بأسرار الله وهم ممتلئون من روح الله. وكان منهم داود النبي الذي مُنح في صباه دعوةً خاصةً لهذه المهمة، وبنعمة الله صار أميرًا للمرتلين وترك لنا كنزًا من الترتيل. لقد كان لا يزال صبيًّا عندما أخضع الروح الشرير الذي كان يعمل في شاول بترتيله الحلو القوي بقيثارته (١مل ١٦: ١٤-٢٣). ليس لأنه كان في القيثارة أي نوع من القوة، بل لأنها بإطارها الخشبي وأوتارها المشدودة كانت ترمز لصليب المسيح. لقد كان يرتل بآلام الرب وهي التي أخضعت روح الشيطان.

ستجدون في مزامير داود النبي كل ما أمكن أن يساعد في تهذيب وتعزية الرجال والنساء من جميع الطبقات والأعمار. المزمور يواسي الحزانى ويخفف من انفعال الفرحين ويهدِّئ الغاضبين ويعزِّي الفقراء ويحرك ضمائر الأغنياء. المزمور يقدِّم دواءً لجميع الذين يقبلونه بمن فيهم حتى الخطاة الذين يجلب لهم شفاء التوبة المقدَّسة والدموع. لقد أعدَّ الله بالروح القدس بواسطة داود خادمه دواءً قويًّا بما يكفي لعلاج جروح الخطيئة، ولكنه حلو المذاق بسبب اللحن الذي يُنشَد به. لأنه عندما يُرتَّل مزمورٌ يحلو للأذن، فهو يدخل إلى النفس لأنه مُسِرٌّ ويمكن حفظه بسهولة إذا تم تكراره مرات عديدة.

ألحاننا تحتوي على كل ما هو مُعزِّي:

الاعترافات، التي لا يمكن لصرامة القانون أن تنتزعها من القلب، تتم عن طيب خاطر تحت التأثير الحلو للنشيد. إذ تحتوي تلك الأناشيد، للذين يتأملون فيها، كل ما هو معزِّي مما جاء في الناموس والأنبياء وحتى الأناجيل. فإن أسرار المسيح يتم التغنِّي بها. التجسُّد يُشار إليه بوضوح، والأكثر من ذلك يُشار إلى رفض المسيح من قبَل الشعب الجاحد له والترحيب به بين الأمميين. معجزات الرب يُتغنَّى بها، وآلامه الموقّرة توصَف، وقيامته المجيدة تتجلَّى، كما يُذكر جلوسه عن يمين الآب. وبالإضافة إلى كل ذلك يُعلَن مجيء الرب في سحابة المجد، ودينونتُه الرهيبة للأحياء والأموات تُستَعلَن. أتوجد حاجة لقول

المزيد؟ يوجد أيضًا في المزامير التنبُّؤ عن إرسال الروح الخالق وتجديد العالم الذي سيتبعه الملكوت الأبدي للأبرار في مجد الرب والعقاب الأبدي للأثمة.

هذه هي أناشيد كنيسة الله. هذه هي الأناشيد التي تمتلئ بها حناجرنا هنا في جماعتنا هذه. إنها ليست تسليةً للمرتل بقدر ما هي مسئولية. إنها تُطفئ الأهواء (أي الشهوات) بدلًا من إثارتها. وبلا شك، فإن هذه الأناشيد مرضية عند الله حيث إن كل شيء يتعلق بها موجَّهٌ فقط إلى تمجيد الخالق. ومرنِّم المزامير الذي قال: «كل نسمة فلتسبح الرب» (مز ١٥٠: ٦)، هكذا يحث كل واحد وكل شيء لتسبيح الله الضابط لهم جميعًا؛ قال أيضًا: «أسبح اسم الله بتسبيح وأعظمه بحمد» (مز ٦٩: ٣٠)، وبذلك فهو يعِد أن يقدِّم التسبيح بنفسه. ثم يضيف قائلًا: «فيُستطاب عند الرب أكثر من ثور بقر ذي قرون وأظلاف» (مز ٦٩: ٣١)، إذ يقدِّم شيئًا أكثر سموًّا، ذبيحةً روحية أعظم من كل ذبائح الحيوانات. وهذا هو ما ينبغي أن يكون. ففي مثل تلك الذبائح كان يُسفَك دم حيوانات غير عاقلة. أمَّا التسبيح العاقل، فيُرفع من القلب ومن ضمير صالح. وبالحق قال الرب: «ذبيحة الحمد تمجدني، وها هو الطريق الذي بواسطته أُريه خلاص الله» (مز ٥٠: ٢٣ سبعينية). فسبِّحوا الرب، إذن، في حياتكم، وقدِّموا له ذبيحة التسبيح، وبذلك تُظهرون في نفوسكم الطريق الذي به تأتون إلى خلاصه.

تسبيحنا يُبهج الرب:

التسبيح الصادر من ضمير نقي يُبهج الرب، وهكذا فإن المرتل يحثنا بقوله: «سبحوا الرب لأن المزمور جيد ولإلهنا يلذّ التسبيح» (مز١٤٧: ١ سبعينية). وإذ يدرك المرنم كيف أن هذه الخدمة مرضية عند الله يقول أيضًا: «سبع مرات في النهار سبَّحتُك» (مز١١٩: ١٦٤). ويضيف إلى ذلك وعدًا آخر بقوله: «ولساني يلهج بعدلك، اليوم كله بحمدك» (مز٣٥: ٢٨). فبدون شكٍّ إنه كانت له خبرة بالصلاح الذي تؤدِّي إليه هذه الخدمة، لأنه يذكِّرنا بقوله: «أدعو الرب بالتسبيح فأتخلَّص من أعدائي» (مز١٧: ٤ سبعينية). إنه حطَّم، وهو صبي، قوة جليات الجبار الهائلة بمثل درع الحماية هذا، وفي أحداث أخرى عديدة خرج منتصرًا على المحتلين.

(يتبع)